اسمي نجيب سرور

محمد فرحات

اسمي نجيب سرور

رواية مقترحة.

محمد فرحات

(1)

كيف أبدأ الحكاية، ومن أين أبدأ بالتحديد؟ فبمجرد أن أذكر اسمي سوف تتداعى على ذهن من يقرأ تلك الصفحات، قصص كثيره سمعها، وأهوالًا وحوادث وشخصيات وأعمالًا مسرحية وشعرية، وافتراءات ومبالغات، وحكايات منها الصحيح ومنها ما جانبه الكثير من الصحة.

حسنٌ سوف أبدأ من الاسم، فاسمي نجيب سرور، وقبل يوم 1 يونيو 1932 الذي هو يوم مولدي، بتسعة أشهر، حذر الطبيب أمي من تكرار الولادة، بعدما عاينت الموت مرارًا في الولادة السابقة، لم يكن يعلم الطبيب وقتها أني بالفعل بدأت أن أتخلق في رحمها منذ خمسة عشر يومًا بالتمام والكمال.

ولدت بالفعل، وكانت وللغرابة ولادة سهلة، على غير المتوقع، وصرت ابنًا لعائلة كبيرة من أب وأم وجد وإخوة وأعمام وعمات، ابنًا لأسرة من أسر الريف المصري في ذلك الوقت، بالتحديد قرية"إخطاب" مركز "أجا"، محافظة الدقهلية.

جدي لأبي يعمل بالفلاحة في قطعة أرض صغيرة لا تتعدى بضعة قراريط، وسط آلاف أفدنة الباشا، الباشا الذي يملك الأرض ومن عليها، ما تحتها وما فوقها. والأب محمد أفندي سرور معلم إلزامي، يعمل في إحدى مدارس القرى البعيدة، ويأتي على صهوة حمار إن حالفه الحظ حينًا، أو على قدميه أحيانًا كثيرة.

أمي هي عماد الدار وهي الشخصية المسيطرة، طبعًا في غياب أبي؛ تلك الشخصية الأسطورية القوية، بجسمه فارع الطول، والذي كان ينحني دائمًا، كيما يعبر عتبة الدار، ويضيف الطربوش عليه طولًا فوق طوله، فما يلبث أن يخلعه بمجرد عبوره عتبة الدار، فمن العيب طبعًا أن يسير هكذا عاري الرأس، بدون طربوش أو طاقية أو عمامة، ولما كان أبي أفنديًا، من الأفنديات المعدودين على أصابع اليد الواحدة في القرية وما جاورها من قرى كان يتحتم عليه لبس الطربوش على كراهة منه، وزهدٍ فيما سوف يضيفه على جسده العملاق من طول.

وأخوات ثلاث يكبرنني، وأخ واحد. نشأت في تلك الأسرة، على ما يزرعه جدي، وعلى مرتب أبي الذي كان وقتها معلمًا إلزاميًا بمرتب أربع جنيهات كل شهر، أبي الذي هرب للبندر منذ أعوام من القرية ومن أرض أبيه، ليلتحق بشهادته الابتدائية بمعهد المعلمين، ويحصل على دبلوم المعلمين، ليلتحق بطبقة الأفندية، بعدما أفسد خطط أبيه بتحويله لفلاح يرعى تلك القراريط الضئيلة الإنتاج.

كنا أسرة مستورة، بل ينظر إليها الفلاحون على أنها من أعلى فئات مجتمعهم الفقير سترًا بل ثراءً! ربما كان عندهم بعض الحق في تصنيفهم الطبقي لنا، فنحن على أي حال لدينا دخل شهري من السيولة النقدية لا يتوفر لديهم، هم الذين لا تتوفر في أيديهم قروش معدودة، إلا بعد حصاد "القطن" ودفع مديونياتهم الباهظة للبقال من شاي وسكر ودخان، وضريبة ري وأرض، وربما مديونيات خاصة بالباشا، تلدها دفاتر صرافه سفاحًا كل عام، فكثيرًا ما كانوا يبصمون أوراقًا على بياض في دوار العمدة، حتى ينقذوا جلودهم من علق ساخنة في الفلكة، بأعواد الجريد الخضراء أو اليابسة، لأقل هفوة صدرت منهم، أو تخيلها الكبراء، أو لفقها الكبراء، فيجد الفلاحون أنفسهم مجردين حتى من تلك القروش، بالحجز على محصولهم لسداد ديونهم، أو ربما جردوا من الأرض نفسها بعد عرضها للبيع، ولن يشتريها طبعًا غير الباشا، فالسواد الأعظم من فلاحي قريتنا لا يملكون أرضًا، أو جردوا من ملكيتهم، أو على وشك أن يجردوا.

أما أسرتنا فتملك أرضًا، صحيح لا تتعدى القراريط الضئيلة، إلا أنها أرض لا تضطرنا للعمل أجراء عند الباشا، وكذلك مرتبًا شهريًا.

هذه نظرة الفلاحين لأسرتنا من الخارج، أما الحقيقة فكانت غير ذلك بالطبع، فإنتاج الأرض لا يكاد أن يغطي تكاليفه، هو يضمن فقط ما تحتاجه الأسرة من خضروات يومية طازجة، طمطماية أو خيارة أو قثائه أو بطيخة أو عود جرير أو سريس مع بضعة أراديب من القمح شتاءً والذرة صيفًا، تخزن في الصومعة الطينية على سطح الدار، تضمن خبز عدة أرغفة يابسة أسبوعيًا على وقود من أعواد الذرة والقطن وأقراص الجلة، مع ما تجود به زلعة الدار من أي شئ يخزن في باطنها من جبن ومش وأصناف من ثمار الخيار والشطة وأي شئ يصلح أو لا يصلح للتخليل بالمش.

فالجبن القديمة والمخلل والخضروات وخبز القمح المخلوط في أغلبه بدقيق الذرة هو قوتنا اليومي ولشهور طويلة، تتخللها المواسم في رجب ورمضان وغيره، فنحظى بوجبة ساخنة عمادها بطة أو أوزة ربتها أمي ووالتها بالتزغيط اليومي قبل الموسم بمواسم! مع صنية الأرز المعمر، أو حلة الكوسكسي، ولكنه حدث سعيد لا يتكرر إلا بتكرار المواسم على مدار العام كأي أسرة من أسر الفلاحين التي تحيط بنا، وتنظر إلينا على أننا من ميسوري القرية وأثريائها!

ولكن نعيش أزمانًا قبل الزمن، أزمانًا بيضاء خالية من الأحداث، نسبة إلى ذواتنا، وقبل بدايات تكون الذاكرة، ولكن قبل هذه العصور البيضاء من الأحداث، كيف تكونت ذاكرتي، كيف نمت، ما هو السطر الأول من دفترها الطويل المكتظ بالأحداث، والتي أخشى أن يفلت زمام روايتها من يدي، فأنا كما تعرف مؤلفًا مسرحيًا، لم أكتب رواية من قبل، فمعذرة إن وقعت في خطأ تراه بعين الناقد، وتذكر عزيزي الناقد أنني ناقدٌ أيضًا مثلك وربما تفوقت عليك!

ما هو السطر الأول من ذاكرتي..؟! دعني أفكر قليلًا من فضلك...آه، كنت طفلًا لم يتعد الثلاث سنوات، أنام مستلقيًا على مرتبة قطنية، وفوق قطعة من القماش تحول دون تكوم أسراب الذباب على وجهي،

وجسدي، ملقًا في أحد زوايا الدار، أحوال جاهدًا أن أكشف وجهي، فأفلح في خلق فسحة أرى منها سقف الدار الخشبي، وأعواد الحطب المتراصة، وتلك الكوة التي يدخل منها ضوء الشمس، أرنو من خلالها إلى زرقة السماء، هذا أول مشهد تراءى لعيني الغريرة، ولكني لم أكن على ما يرام، فكل حين تأتي أمي لتكشف عن جسدي وتتمتم بأدعية وآيات من القرآن والرقى، وربما بللت وجهي بدمعة أو أكثر، سرعان ما تجففها، وتأتي عمتي، وتضع في يدي فطيرة ذرة بالسكر، أنحت منها بسنتين نبتتا في فمي، ما يستطيعه طفل تعلم الأكل على كره بعد مأساته الأولى من انفصامه عن ثدي أمه، ثم تضعني في سبت من الخوص، كنا نضع فيه خبزة الأسبوع، تحمل السبت على رأسها، وتذهب بي إلى البندر، فقد كنت مريضًا جدًا، ومهددًا بالموت من جراء الالتهاب الرئوي، والذي أعاني من آثاره وأنا أحدثك الآن.

وما أن يراني الطبيب، حتى يخبر عمتي بخطورة حالتي، وأنني على وشك الموت، وكثيرًا ما يموت من هم من هم في سني بأزماننا البعيدة تلك. ويوصي بصنف أو اثنين مما توفر في الوحدة الصحية بالبندر، والتي يتناولها الجميع بصرف النظر عن نوع مرضهم.

تحملني عمتي وتعيدني إلى السبت، ولكنها تقرر أن تكذب، تدخل الدار، مستبشرة ضاحكة منادية على أمي، تبشرها بأني على خير حال، فتشق زغاريط أمي صمت الدار وما حولها، بتلك الظهيرة، وتحتضنني بيديها وما بهما من بقايا عجين، وتضعني على المرتبة، وتعود للفرن قبل أن يحترق ما به من أرغفة، وتنتظر عمتي الخبر، خبر موتي من حين لآخر، بين تأنيب نفسها ورضاها عن كذبتها، هل مت كما توقع الطبيب، لا لم أمت لأنني أحدثك الآن، وأحاول أن أكتب روايتي الأولى وربما الأخيرة.

(2)

كنت طفلًا ملائكيًا أو هكذا أبدو، فضآلة جسدي وضعف قواي من آثار المرض القديم، منعاني من شيطنة أقراني، فكنت ألعب معهم تحت حماية أخي الأكبر رأفت، هذا الاسم، الذي ينتهي بتلك التاء التركية المفتوحة، مجسدًا أحلام أبي الطبقية بمجرد التشبه بأسماء الطبقة العليا في قريتنا بأصلها التركي، وكان رأفت على عكسي يتباهي بقوته وشيطنته على الأقران، وتلقينهم علقًا ساخنة، كثيرًا ما كانت سببًا لتلقينه عقوبات صارمة من أبي الذي ما تكاد تستقر قدمه بداره، حتى تأتيه الشكاوى من ذوي ضحايا أخي، أو من أمي ذاتها، أو عماتي، وكانت شيطنة أخي، سببًا في تعرضي لحملات انتقام قاسية من ضحاياه أنفسهم!

ولكنه كان يوفر لي قدرًا من المهابة بين أقراني، ما كنت أحلم بتحصيل جزء منه من جراء ضعفي وقلة حيلتي في مجاراة شيطنة أقراني، هكذا انتقلت رغمًا عن أنفي وعن طموحاتي في ممارسة الشيطنة إلى خانة الملائكة، فكنت هكذا ملائكيًا رغم إرادتي وتطلعاتي الكامنة.

ومع تكرار الشكوى والعلق غير المجدية في الحد من شيطنة أخي، يقرر أبي أن يلحقنا بندوة تنقية دودة القطن في ذلك الصيف القائظ الملتهب. أخي وأنا نلتحق بأفواج الصبية والصبايا ممن يكبروننا أو يعادلوننا

في أعمارنا الغضة، وتحرص أمي على أن تضع في يدي منديلًا ينطوي على رغيفين يابسين وقطعة من الجبن القديم، هي قوتي وأخي طيلة يوم الشقاء والعمل.

كيف غزاني هذا القدر من التوجس والحزن والكآبة، وبعض العدوانية المزيفة، والتي هي في الحقيقة غطاء لهشاشتي وضعفي، والتي يفسرها البعض على أنها غرور واعتداد زائد بالنفس، ما تلبث أن تتحول لاندفاع نحو الهاوية، أية هاوية على شفا أي جرف من الهلاك!

بقيت ساعة على الظهيرة، التي تتربع الشمس في سمائها مطلقة سياطها من الحر غير المحتمل، منهمكين بين خطوط القطن نجمع لطعه المصابة بالدودة، ونضعها في فتحة جلابيبنا المربوطة من وسطها بحبل يحول دون سقوطها، وحينما تمتلأ الجلباب باللطع، نخرج إلى رأس الحقل ونلقي بالأوراق المصابة في نار عظيمة لا تخمد طوال عملية جمع اللطع تلك، لتضاعف نارها من حرارة الشمس، تصيبني نوبة من العطش غير المحتمل لطفل لم يتعد الخمس سنوات، وكيف له أن يصبرعلى عطشه، ومياه الترعة تتلألأ أمام عينيه، تغويه كل مرة بتجرع ما يطفأ نار عطشه، يستأذن من الخولي، ولكنه يصرخ في وجهه مهددًا بخرزانته الطويلة، وربما نال ضربة أو هيفت ضربة، يأمره بالعودة لخطوط القطن، فمعاد الشرب لم يحن أوانه، بقيت ساعة على آذان الظهر، والقيالة التي نأكل ونشرب فيها وتستريح أجسادنا لتعاود العمل بعد ساعة الغذاء.

ولكني أقرر التمرد، هو أول تمرد في الحقيقة على النظم المستبدة والقوانين التي يضعها السادة لينصاع إليها سواد الناس وعامتهم.

أخرج من الخطوط مكتظًا باللطع أرميها في النار ثم أعدو هاربًا من خرزانة الخولي نحو الترعة، وتحت وابل من صراخه وشتائمه، أصل الترعة أتجرع وأتجرع وأتجرع ويلاحقني الخولي لتجود خرزانته بالضرب على جسدي النحيل العاري إلا من جلباب كستور مقلم خفيف ممزق، في الحقيقة ومع تألم جسدي الشديد من وقع خرزانة الخولي، كنت منتشيًا سعيدًا بخرق قانون الخولي، وكسر هيبة سلطته الطاغية، منتشيًا بروح الاستشهاد والتضحية، فقد قدمت مثالًا لأطفال الندوة، وكنت بطلًا في أعينهم، أو..أو هكذا تخيلت! ولكنها كانت أول ثورة في حياتي المكتظة بالثورات، وأول تماس حقيقي لشفير الهاوية، ومع قسوة علقة الخولي لم أمت، ولم أمس قاع هاوية الهلكة، نجوت بفعلتي، وشربت وحطمت هيبة سلطة الخولي.

كان أبي في الدار ينتظرنا فقد كانت عطلته الصيفية الطويلة، يسترد سلطاته غير المحدودة من أمي ويمارسها بكبس أنفاسنا، فيكبح جماح شيطنة أخي، وتستكين أخواتي تحت نظراته المراقبة فلا تكاد تسمع قهقة ضحكاتهن ومقالبهن وتنازعهن على أبسط الأمور.

في الحقيقة كنت ممزقًا بين محبة أبي ومهابته، لتنمو مساحات المحبة، وتنتزع من أرض المهابة الشاسعة في صدري لأبي قيراطًا تلو القيراط. ومع انتهاء يومي الشاق بآذان المغرب، وتسلل نسمات الصيف

المصالحة لنا على ما فعلته بنا ظهيرته، نعود وأخي نحو الدار ليسلم كلًا منا لأبيه أجره الذي لم يتعد القرش صاغ.

وتنادي أمي علينا لنلتف على طبلية العشاء الذي لم يختلف عن الغذاء في شئ سوى في وفرة أرغفة خبز الذرة الناشف ومحصول الزلعة الذي لا ينضب أبدًا.

يصرح أبي لنا بتصريح خطير جدًا، فمن الغد سوف نحتفظ بأجرتنا اليومية في البرطمان الزجاجي الذي أحضره أبي من البندر، ومن تراكم قروشنا سنشتري لكل منا جلبابًا جديدًا نقضي به العيد، بدلًا من تلك الأثمال المهترئة.

ومع كل قرش نضعه في البرطمان ينسج خيطًا في الجلباب أمام ناظري، فلم أعد أرى تراكم القروش، وإنما أرى خيوط الجلباب، طوقه وأكمامه ووسطه وذيله الذي سأتباهى بجره مختالًا صباح العيد، أتخيل أعين أقراني ونظرات الحسد على ما نرفل فيه من نعمة وثراء.

أصبح لعملي جدوى، فكنت استيقظ كل يوم مبكرًا أحلم بالقرش الذي سأضعه في نهاية اليوم بالبرطمان الزجاجي، ليتحول إلى خيط ينسج قماش جلباب العيد الجديد، كنت ولأول مرة وربما الأخيرة التي أتحمس فيها لعمل طيلة حياتي القصيرة كما تعرف.

(3)

هل كان حدثًا حقيقيًا، أم مجرد وهم؟ يستوي الوهم والحقيقة في أذهاننا بمقدار رسوخه في الذهن، وتأثيره في شتى مجريات الأحداث، كل ما أعلمه بالرغم من تأكيد أخي لحدوثه، أنه بداية لنمو بذرة الجنون لدي؛ الجنون ذلك الخلاق الطاغي المستبد الذي يعيد تركيب جزئيات الواقع في عقل الفنان، فيصيغها بتركيبه الذاتي في صورة لوحة تشكيلية، أو قصيدة أو مسرحية أو مقطوعة موسيقية.

صباح يوم الجمعة، وطبلية الإفطار التي تتحلق الأسرة حولها مجتمعة بعددها لمرة واحدة في الأسبوع، وكنت قد فرغت من مشاهدة تراكم القروش خيوطًا نسجت جلبابي، أتخيل ألوان خيوطه الزاهية الجميلة، وأنساب مع خيالاتي الباسمة الضاحكة، لأصحو على نداء أمي تدعوني لطبلية الإفطار، أجلس متناولًا كسرة من الخبز، وما أن أمد يدي نحو صحن الجبنة، حتى تغزو أذني دقات متتابعة على الباب، دقات ثلاث سوف أسمعها كثيرًا فيما بعد، لماذا انتفض جسدي مُفزعًا مرتاعًا، لماذا توقعت أن لهذه الدقات تأثيرًا مرعبًا عليَّ أنا وحدي دون أي فرد من تلك الأسرة الكبيرة المتحلقة حول الأرغفة وصحن الجبن وأعواد السريس، هي مجرد طرقات ليد تستأذن ليفتح أهل الدار دارهم لصاحبها أو صاحبتها.

يقوم أبي، ويفتح الباب فإذا بعجوز ذات هيئة غريبة، لم أرها من قبل في أرجاء قريتنا الصغيرة، تصطحب طفلًا غريبًا من عمري بالضبط أو أكثر قليلًا، وقد ربط ذراعه الأيسر المجبر برقبته، يدعوها أبي بدعوة

المراكبية لتناول طعام الإفطار، فتتمنى العجوز شاكرة الهناء والشفاء للمتحلقين، ثم تلقي بقنبلتها فتخبره أن ابنك كسر ذراع حفيدي، وكلفني ذلك جنيهًا كاملًا عند المجبراتي.

يرمق أبي أخي رأفت بأعين ينطلق شرر الغضب المكتوم منها، فليس غيره من فعلها هو الذي قد أدمن ضرب الرائح والغادي بمجرد عبوره على عتبة دارنا، ويصرخ، "يا ابن الكلب يا رأفت!"، وما يكاد أن يصب موشح لعناته كبداية لعلقة ساخنة لهذا الشيطان الصغير الذي لا يكف أذاه عن أحد، حتى تقاطعه العجوز وتنقذ رأفت الذي نشف ريقه وتجمدت مفاصله، "ليس رأفت يا محمد أفندي من كسر ذراع الولد، بل نجيب هو من فعل ذلك!"، أفز كمن قرصته أفعى غير مصدق ما يدور، فلم أر هذا الولد أبدًا من قبل، أحاول تصحيح المصير راجيًا الأقدار والعجوز، "أنا يا خالة؟!"، فتجيبني "نعم أنت!"، لم تستجب الأقدار في إنقاذي، ولم تحاول حتى مدّ يد العون، فينظر أبي غير مصدق، "إنت يا ابن الكلب من فعلها؟ أنا هوريك!"، ثم يتوجه مسرعًا نحو البرطمان المتراكمة فيه أحلامي، ويفرغها كلها في حجر العجوز، فتأخذ العجوز خيوط جلبابي وتختفي.

هل كانت عجوزًا حقًا أم تراها الغولة أو النداهة التي تخرج من الترعة فتغتال الرجال واحدًا تلو الآخر.

كم سوف تلاحقني في أيامي القادمة طرقاتها واقتناصها أحلامي الحلم تلو الحلم!

ويدخل العيد، فأراني متعثرًا في جلبابي الكستور القديم.

ذلك العيد كان أشبه بصفعة على وجه طفولتي، صفعة أيقظتني من حلم البراءة المبكرة إلى عالم القسوة والخذلان. ارتديت جلبابي الكستور القديم، المهترئ عند أطرافه، المتسع حد الضياع على جسدي النحيل. كنت أجره خلفي، لا مختالًا كما تخيلت، بل خجلًا، كأنني أحمل عبئًا ثقيلاً يخنق أنفاسي.

لم يكن العيد كما كنت أرجو، كانت نظرات أقراني كالسكاكين تخترقني، وكأنهم يعرفون أنني كنت على أعتاب ارتداء جلباب جديد فاخر، قبل أن تسرق العجوز خيوطه. رأيت في عيونهم خليطًا من الشفقة والسخرية، لكنني لم أبكِ. كنت قد تعلمت أن الدموع لا تسترد شيئًا مسلوبًا، بل تزيد من ألم الخسارة.

ذلك الحدث، سواء كان وهمًا أو حقيقة، صار كالنقش في عقلي، نقشًا لا تمحوه السنين. أصبح رمزًا لكل ما سيأتي لاحقًا في حياتي: الأحلام التي تنسجها يداي ثم تأتي الأقدار أو البشر لتمزقها أمام عيني. لكنني تعلمت درسًا آخر مع مرور الأيام: أن الحلم، مهما كان صغيرًا، له قوة لا تُقاوم. قد يُسرق، قد يُدمر، لكنه يولد من جديد بأشكال أخرى، وفي أوقات أخرى.

بدأت أرى في كل تجربة خيبة جديدة بذرة لحلم آخر. إذا كان جلبابي قد سُرق هذا العيد، فإن العيد القادم سيكون لي جلباب أفضل، أجمل، وأقوى من أن تُسلبه يد عجوز أو قسوة أب.

ظللت أتساءل طويلًا: هل كانت العجوز حقيقية؟ هل كانت مجرد انعكاس لهواجسي ومخاوفي التي ولّدتها قسوة الحياة؟ أم تراها كانت تجسيدًا حقيقيًا لأول لقاء بيني وبين الظلم، ذلك الذي صار رفيقًا دائمًا في حياتي؟

مرت سنوات، وكبرت، لكن العجوز لم تختفِ من ذاكرتي أبدًا. كنت أسمع طرقاتها الثلاث كلما حلمت بشيء جديد، وكأنها تذكرني بأن الأحلام ليست ملكًا لنا وحدنا، وأن الحياة قد تأتي لتقايضنا عليها بثمن قاسٍ. لكنني قررت مع الوقت أن أواصل الحلم رغم ذلك، أن أظل أعيد نسج خيوط الجلباب، وإن كان مصيرها التمزق مرة أخرى.

ففي النهاية، لم يكن الجلباب سوى بداية لرحلة طويلة مع الأحلام، والخيبات، ومع تلك الشرارة التي بدأت تحترق داخل روحي، تلك التي صارت فيما بعد نارًا خالقة، تعيد صياغة الواقع، وتُخرج منه صورًا أجمل وأصدق من كل الخيبات التي عرفتها.

(4)

يتحلق الصبية حولي وأنا أحكي بفخر لم يتوفر لي من قبل، وانتشاء لذيذ كمن فرغ لتوه من ارتشاف روح العنب المعتق في زجاجات قديمة قدم الكون.

أبي قد أتاه الخفير داعيًا إيّاه للقاء الإله، بالضبط كما دعا موسى الكليمَ الإلهُ، أبي فارع الطول الجميل، أيذهب حقًا للقاء الباشا في قصره، ماذا تراه يفعل أيتنازل ويقبل دعوته، أم تراه لن يتنازل عن عظمته فلن يغدو له، أبي هذا العملاق الحبيب عاتي القوة والبطش، يستطيع يا عيال أن يمد كفه للسماء ويأتي ببدر منير، فعلها كثيرًا أمام عيني، بل يستطيع أن يخلع النخلة من جذورها كم فعل بنخلة على رأس حقلنا، وأذاقني شهد رطبها الشهي، فعل ذلك من يومين لا غير، وحينما جاء ذلك الديب لقريتنا يأكل الصبية من الصغار وهم يتعلقون ببذاذ أمهاتهن، ثم يجور على ذربية الدار فيأكل ما فيها، وقد عجز رجال القرية، وحينما جاء أبي من القرية البعيدة، خرج وحده يبحث عن الديب وحينما يجده يصرعه بكف واحدة، ويأتي للقرية يجر الديب من ذيله الرمادية، وسط زغاريد نساء قريتنا، فاكرين يا عيال؟ ولكن أبي طيب جدًا

وسوف يتنازل ويذهب لقصر الباشا، فالباشا يا عيال يريد مقابلته ليكافأه بغذاء شهي كله لحوم بط ووز وحمام، ولكن أبي لن يمد يده نحو المائدة إلا إذا رجاه الباشا أن يتنازل فيأكل معه..

وكنت أسترق السمع حينما جاء الخفير لدارنا يدعو محمد أفندي للقاء الباشا، وأذعت الخبر بين عيال قريتنا، ودعوتهم لنتبع أبي في رحلته نحو قصر الباشا الجاثم على أنفاس القرية منذ دهور طويلة، كنت مزهوًا فخورًا بأبي، فلم يتنازل الباشا للقاء أب أحد من أترابي من قبل، لم يدع الباشا غير أبي، ربما أراد أن يستشيره في أمر أعجزه، أو ربما أراد دعوته لمائدة عامرة، فأبي معلم يستطيع أن يحل مسائل القسمة المطولة ويحفظ جدول الضرب كله صغيره وكبيره، يستطيع أبي أن يفعل كل شئ أعجز الجميع بما فيهم الباشا.

أمشي متلصصًا خلف أبي وهو في ذهوله البادي لا يراني، ولكني كنت قد ذهلت عن ذهوله، حتى لو وقعت عينه عليّ فلن يراني من فرط تردد قدميه بين الذهاب نحو القصر أو الفرار من القرية كلها، أمشي على مهل خلف أبي ويتبعني الصبية، نمني أنفسنا بفاكهة القصر، ولحم طيره، وما لم يرد على بال أو خاطر من صنوف النعيم.

يدخل أبي والجًا حديقة القصر، فيلقي السلام على الخفراء فلا يردون، فأصل نحو عتبة الباب فيهشني الخفير وأترابي بعيدًا بخرزانته الطويلة، فأقف بعيدًا، لأرى الباشا وأرى أبي، ولا أستطيع السماع على تلك المسافة، ولكني أرى ..أرى..أبي وقد تبخر طوله ليصير قصيرًا، أرى عملاقًا يختال في خطواته، يكلم أبي، ويشوح بذراعه الطويلة كمن قد أخذته نوبة غضب لسبب غير مفهوم، وما يكاد الباشا ينهي كلامه حتى يخلع حذاءه وينهال على أبي ضربًا بالحذاء، أهذا أبي ؟!

يخرج أبي ذاهلًا من قصر الباشا، وقعت عينه عليّ، وقد هرب العيال من حولي خوفًا من الخفير، ولكني وقفت وحيدًا، ينظر أبي إليّ، ولا ينطق بكلمة واحدة، رأيت في عين أبي ما لم أره ولم أتخيل يومًا أن أراه رأيت انكسارًا مبللًا، لم يكلمني أبي، حتى لم يأمرني بالعودة إلى الدار، أشاح بوجهه، وسار وحيدًا بعيدًا عني، لماذا أبي ؟

أمشي وحيدا، يأكلني ما رأيته ويتلمظ عظامي عظمة عظمة، يعاد المشهد بكل تفاصيله كسياط من كرباج مهول لا يكف عن اغتيالي، لماذا أبي ؟ أهذا أبي ؟

عرفت الكثير والكثير وطفت البلاد والبلاد والشوارع والأزقة، نمت على أسرة الفنادق الباذخة، وعلى تراب الأرصفة وكتبت القصائد وألفت المسرحيات وأخرجتها وشخصتها، ودبجت المقالات وعاينت الغنى وقرصني الجوع، وقتلت في ريعان شبابي، ولكني كنت قد قتلت قبل ذلك بأزمان، قتلت يومها، يوم الحذاء.

أدخل الدار بالمساء فإذا الدار مأتم كبير، يدخل الفلاحون أفواجًا ويخرجون أفواجًا، يواسون أبي ويحاولون التسرية عنه، وهو ساكت ذاهل وقد ثبت عينه بجدار الدار الطيني، لا يلتفت ولا يبدي حراكًا.

وجدي المتهدم يجلس قبالة أبي، وأمي تبكي من بعيد بلا صوت، أعدو نحو أبي، فلا يكلمني أحاول أن أتشيطن أمامه حتى يصرخ فيّ، فلا يصرخ.

أهمس لجدي متسائلًا، فيربت على ظهري، ويقول بحكمة هامسة، "لا تقلق على أبيك يا نجيب، كل البشوات في كل القرى يفعلون كذلك بكل الرجال في كل القرى والمدن.".

تلك الليلة، كانت أول درس لي في الظلم، وأول لقاء حقيقي مع القهر الذي لم أكن أعيه آنذاك، لكني شعرت به في قلبي الطفل، كجرح غائر لا يندمل. نظرات أبي الشاردة، والصمت القاتل الذي أحاط بالدار، وبكاء أمي الذي كان أشبه بموسيقى جنائزية، كل ذلك علمني أن هناك أشياءً أكبر من قوتنا، وأقسى من أحلامنا الصغيرة.

لكن ما علق في ذهني لم يكن فقط انكسار أبي، بل تلك الكلمات الباردة التي قالها جدي، "كل البشوات في كل القرى يفعلون كذلك بكل الرجال في كل القرى والمدن."، جملة تحمل حقيقة جارحة، حقيقة تُشبه الوصمة التي تُلاحقنا جيلاً بعد جيل، وكأننا وُلدنا لنُذل، وكأن كرامتنا مجرد عبء ثقيل علينا التخلص منه.

في تلك الليلة، لم أستطع النوم. كنت أستعيد المشهد مرارًا وتكرارًا: أبي العملاق، الذي لطالما رفع النخلة من جذورها، وأطعمنا من رطبها، كيف أمكن للباشا أن يحوله إلى مجرد رجل صامت يطأطئ رأسه تحت وطأة الحذاء؟ كيف أمكن للظلم أن يكون بهذه القسوة، وللإنسان أن يكون بهذا الصمت؟

منذ تلك اللحظة، انقسم عالمي إلى قسمين: عالم من الحكايات التي كنت أنسجها عن أبي، بطلًا خارقًا لا يهزم، وعالم آخر واقعي، مليء بالخوف والانكسار. لكنني، كطفل، لم أكن أعرف كيف أوازن بينهما. كنت أميل إلى الحلم، إلى الرواية التي أرويها لأترابي، والتي فيها أبي يُهزم الباشا ويعود منتصرًا، ومع ذلك، كان هناك شيء في داخلي يعرف الحقيقة، حقيقة أن أبي، رغم قوته وجبروته، كان مثلنا جميعًا، مجرد رجل تحت رحمة الحذاء.

مرت الأيام، وكان أبي يتجنب النظر في عيني، وأنا أتجنبه بدوري. لم أعد أتشيطن أمامه، ولم أعد أحكي لأترابي قصصًا عن بطولاته. كان هناك شيء مكسور بيننا، شيء لم أستطع إصلاحه أبدًا. لكن ما لم أفهمه في صغري هو أن أبي لم ينكسر أمامي فقط، بل أمام نفسه أيضًا. كان الحذاء الذي ضربه أكثر من مجرد أداة للمهانة، كان رمزًا لكل ما يثقل كاهله: الفقر، القهر، وعجزه عن حماية نفسه وأسرته من عالم لا يرحم.

وبينما كنت أحاول استيعاب ذلك، بدأت أحلم بطريقة ما للرد على ذلك العالم. لم أكن أعرف كيف، لكنني شعرت أن عليّ أن أفعل شيئًا. كنت صغيرًا جدًا على الثورة، وضعيفًا جدًا على المواجهة، لكن في داخلي بدأت بذور الغضب تنمو، تلك البذور التي ستتحول فيما بعد إلى كلمات وقصائد، إلى صراخ مكتوم على الورق، وإلى مسرحيات تصرخ بوجوه الظالمين.

لقد كان يوم الحذاء يومي الأول في مدرسة الحياة القاسية. علمني أن العالم لا يعترف بالضعفاء، وأن الحكايات الجميلة التي نرويها لأنفسنا عن أبطالنا قد تكون مجرد أوهام نتعلق بها لنستطيع المضي قدمًا. ولكن علمني أيضًا شيئًا آخر: أن الظلم، مهما كان قاسيًا، لا يمكنه أن ينتزع منا قدرتنا على الحلم، حتى لو كانت أحلامنا مجرد خيوط نسجناها في خيالنا، فقط لنجد فيها عزاءً وسط قسوة الواقع.

(5)

كان مركزه الضئيل كأفندي يقرأ ويكتب ويقبض جنيهات أربع، ويملك أبوه قراريط طين، وأمي التي لا تعمل خادمة بقصر الباشا، هي وأخواتي البنات، وأخي الطويل المتشيطن، وأنا وذهابنا إلى كتاب الشيخ إسماعين، كل ذلك كان قد مثل مركزًا للأسرة وسط أسر بالكاد تملك كسرة أو اثنتين من الخبز الناشف، لم ينظر إلينا الفلاحون فقط كأثرياء، ولكن كان هذا الوضع الطبقي المتميز لأسرتنا يقلق الباشا، فضلًا على لماضة أبي، ولسانه الزالف أوقاتًا قليلة، مع استشارة الفلاحين له في أمور الحساب وإحصاء الديون وما يدخل من قروش في أياديهم أو ما ينفلت سريعًا هربًا هرب البرغوث من لباس أحدهم، حين يهم بعصره إثر لدغة ماكرة، كان محمد أفندي، وهو لا يعلم، يمثل تهديدًا ما تخيله الباشا لمركزه، أو خشي الباشا أن يحذو شباب القرية حذوه في هروبه من الأرض والشعبطة في ذيل الأفندية.

كل شئ قد اتضح لي الآن مفسرًا يوم الحذاء، أراد الباشا أن يهدم هذا الوضع المتميز لمحمد أفندي، ولكن تقارير الخفراء تواترت للباشا، لا ينفك الفلاحون عن التحدث عن محمد أفندي والتعاطف معه، بل اجترأوا وجاهروا بزيارته، وربما شتموا الباشا علنًا أو في سرهم، ربما يفكروا فيما هو أعظم من لعن الباشا في السر، ربما لام الباشا نفسه على تسرعه في ضرب محمد أفندي علنًا، فقد حوله بحذائه لبطل شهيد، كان من الأوفق أن يسحبه ليلًا ويهدمه بأعواد الجريد وفلكة العمدة، لا أن يقوم الباشا بنفسه بتشريف محمد أفندي بأن يلامس حذاؤه رأس هذا الفلاح الأفندي الجلف.

على الباشا إذن أن يطفئ تلك الشرارة التي قد تتحول لحريق هائل، مازال في الأمر فسحة، فقط التعقل وعدم التهور يا باشا وإلا ستفلت الأمور من يدك.

وتعقل الباشا فعلًا ولم يتورط بالظهور هكذا علنًا على ساحة الأحداث، فكلاب الصيد كثيرة لا تحصى مطاريد الشراقوة و العمدة وخفرائه كلهم رهن إشارته.

ورقة صغيرة يدسها كلب من كلاب الصيد المسعورة، كتب على ظهرها أن الباشا قرر قتلك كما قتل الكثير ممن تعرف أو لا تعرف! كل ما يعرفه محمد أفندي أنه أتفه من ذبابة أو صرصور يسحقه الباشا أو أحد الكلابه المدربة؛ عيار ناري طائش، حريق، غير مقصود بالطبع، يشب بالدار ويشيط من فيها، أو أن يصير محمد أفندي جثة طافية مجهولة المعالم بشوال يعوم على وجه مياه المصرف الداكن، يستطيع الباشا فعلًا أن يأمر بأي من ذلك فيطاع، وتقيد الحادثة على أنها صدرت من مجهول لم يستدل عليه، وتغلق الدفاتر على ذلك، فأنت تعلم أن الدفاتر دفاترهم والأوراق أوراقهم فضلًا عن أقلام الكوبابة والحبر وما يُستجد.

أفزع من نومي مرتعبًا على إثر دقات ثلاث، هي ذات الدقات التي اغتالت جلباب العيد قبل أن ينسج، ماذا تريد الغولة مني، ماذا تراها قد عزمت على اغتياله، اتسحب من من وسط المستغرقين في نوم هادئ دافئ، وأنزل من على ظهر الفرن الذي اعتاد أن يكون سريري وأخي بلوان الدار، بليالي الشتاء القارصة. أتسلل نحو قاعة جدي القبلية، فإذا أبي يقرأ مادُّون على الورقة لأبيه وأمي، هو مجلس استشاري لإدارة الأزمات إذن، وبعدما يفرغ أبي من تلاوة آية التهديد تلك، يصمت، ويلف الصمت والذهول المجلس، ولكنهم كانوا في غاية العملية والحكمة، ليقرر المجلس أن يهرب أبي من القرية كلها، بل ومن وظيفته بالقرية النائية تلك التي لا تبعد عن يد الباشا وكلابه المدربة على صيد الطرائد جيدًا.

دقات الغولة الثلاث إذن كانت إيذانًا بأخذ أبي بعيدًا، يترك مدخراته التي لا تتعدى الخمس جنيهات، يأخذ جنيهًا ويترك الباقي، وينسل متخفيا ملثمًا، لا يتلفت وراءه، يضيع أبي كضياع الثوب، والغريب أنني حينما صعدت سطح الدار لأودع أبي خفية في تلك الليلة المظلمة، رأيت العجوز الغولة في منتصف الطريق وراء أبي، كيف رأيتها والظلمة قد خيمت بسوادها على كل شئ، مازلت أسائل نفسي كيف؟

كان رحيل أبي تلك الليلة كغروب شمس لا تعود، وكأن شيئًا من صلب وجودي قد انتُزع. رأيته من فوق سطح الدار، يسير بخطوات ثقيلة، وكأن كل ذرة في الأرض تود الإمساك به ومنعه من المضي قدمًا، أو ربما كانت الأرض نفسها تتوسل إليه ألا يتركها وحيدة في وجه الباشا وكلابه.

أما أنا، فلم أستطع أن أودعه بصوت مسموع، اختنقت الكلمات في حلقي، وخشيت أن يراني فيرتجف قلبه ويتردد، أو أن ينكسر أمامي مرة أخرى. كنت أود أن أصرخ وأقول: "لا تذهب يا أبي! ابقَ وقاتل!"، لكنني كنت أعرف أن البقاء لم يكن خيارًا، وأن القتال في هذا العالم لم يكن دائمًا ممكنًا.

ظللت أراقب ظل أبي وهو يبتعد، حتى اختفى في عتمة الطريق، وعيناي معلقتان عليه حتى لم يعد هناك سوى السواد. لكن السواد لم يكن فقط في الطريق، كان في داخلي أيضًا. كنت أحاول أن أفهم: لماذا أُجبر أبي على الهروب؟ لماذا أصبح هذا العالم قاسيًا إلى هذا الحد؟ ولماذا كان الباشا، بكل قوته ونفوذه، خائفًا من رجل بسيط مثل أبي؟

أما الغولة التي رأيتها خلف أبي، فقد كانت تجسد كل مخاوفي في تلك اللحظة، لم أكن متأكدًا من حقيقتها، هل كانت مجرد وهم نسجه خيالي الصغير، أم كانت رمزًا للقدر الذي يلاحق أبي؟ لم أجرؤ على النزول لأتأكد، ولم أكن بحاجة لذلك. الغولة كانت حقيقية بما يكفي، لأنني شعرت بوجودها في داخلي. كانت تمثل الباشا، والخوف، والظلم، وحتى العجز الذي شعرت به وأنا واقف هناك بلا حول ولا قوة.

مرت الليالي بعد رحيل أبي ثقيلة كأنها دهور. تحولت الدار إلى صمت مطبق، لم يكن هناك صوت أبي وهو يقرأ بصوت عالٍ أو يروي حكاياته القديمة. لم تعد أمي تغني وهي تطبخ، ولم يعد أخي الطويل يصرخ مشاكسًا، وكأن الجميع أصيبوا بجرح عميق لا يمكن مداواته. كنت أمشي في القرية كالشبح، لا أجرؤ على رفع رأسي أو النظر في عيون أحد. كنت أشعر أن الجميع يلومني، أو ربما كانوا يلومون أنفسهم، لأنهم لم يستطيعوا إنقاذ أبي.

لكن، شيئًا فشيئًا، بدأت أفهم. أبي لم يكن مجرد ضحية للباشا أو للظلم، بل كان ضحية لحلم كبير. حلم الحرية، والكرامة، والعدالة. وربما كان الباشا يخشى أبي لأنه كان يعرف أن هذا الحلم، حتى لو بدا صغيرًا وضعيفًا، يمكن أن ينمو ويكبر، ويهدد عرشه.

ومنذ تلك الليلة، بدأت بذور الحلم تنمو داخلي. لم أكن أعرف كيف، ولم أكن أعرف متى، لكنني شعرت أن عليّ أن أكمل طريق أبي. لم أكن أريد الهروب مثله، لكنني كنت أعلم أن الوقت لم يحن بعد. كنت صغيرًا

جدًا على الثورة، وضعيفًا جدًا على المواجهة. لكنني كنت أعرف أن الحلم، مهما كان صغيرًا، لا يمكن لأي باشا أن يقتله، لا بحذائه، ولا بكلابه، ولا بغولته.

في تلك اللحظة، وأنا أقف وحدي على سطح الدار، أدركت أن الغولة لم تكن تلاحق أبي فقط، بل كانت تلاحقني أيضًا. لكنني كنت مصممًا ألا أدعها تنتصر.

"6"

تركنا أبي، ومع المأساة الواضحة التي زلزلت كياني الهش، كانت العجوز الغولة تصر على زيارتي كل ليلة بأحلامي، فأصحو فزِعًا غارقًا بترعٍ غزيرة من عرق، فتهرع أمي تتمتم بالصمدية والمعوذتين، لأضيف بذلك لهم همًا جديدًا فوق الهم، ماذا قد أصابه أهو مس شيطاني أم عمل أم نظرة حسد.

فأنعزل عن محيطي، وينصب جهدي كله على الرواح والغدو نحو كتاب الشيخ إسماعين، أحفظ كتاب الله متفوقًا في الحفظ على جميع أقراني، مغتربًا في ذات الوقت عنهم، أهيم بخيالي بعيدًا إلى حيث يمكث أبي ماذا تراه يفعل الآن؟ أم أن الغولة قد لحقت به ليلتها فسحبته وغطسته بالمصرف البعيد شرقي القرية، هل مازال حيًا؟ كنت ألقي بكل هذه التساؤلات على أمي التي اعتادت احتضاني كل ليلة بعدما أصابني هذا المس كما يقولون، فتبدد أمي الهواجس والمخاوف، وتروع العجوز الغولة، فتولي هاربة عن أحلامي كل ليلة.

وعلى عكسي تمامًا فقد حسب رأفت أنه قد أصبح في مأمن من بطش أبيه فزاد في شيطنته غير هائب من عقاب كان يرفرف كل يوم على رأسه بحضور أبيه في نهاية كل أسبوع في الأيام الخوالي أو بدوامه بالدار طيلة فترة الأجازة الصيفية، اليوم هو بعيد عن ذلك بغياب أبيه، ظن هكذا، مجرد ظن، ومع أول اختبار حدث منه لجس نبض إرادة أمه، غاب يومًا وليلة، واختفت مع غيابه ورقة بخمسة قروش، قضاها كلها في مولد السيد هناك بطنطا، يلقي بالملاليم يمينًا وشمالًا وكأنه ابن للباشا ذاته.

كان اختبارًا حقًا أظهر الجانب الآخر من شخصية أمي تجسد في وطأة ما انصب عليه من عقاب حين عودته، فارغ الجيب مما قد اختلسه، عقاب ما كان ليتوقعه من أبيه المهول شديد البطش يومًا، ليس اللطم والركل فقط، وإنما اقتادته بعدما ربطت يده نحو سطح الدار، ثم قيدت قدميه وألحقتها بحبل مع يده، وألقته على ظهره يقضي النهار كله على سطح الدار بدون طعام أو شراب، لم تلن أمي لشئ، حتى لرجاءات جدي التسعيني التي تصدع الحجر، فرفضت كل رجاء للعفو عن رأفت. نزل أخي من سطح الدار،

بعد قضائه فترة عقابة كلها بالتمام والكمال، وقد انصاع تمامًا لإرادة أمه الصلبة بعدما عاين آثارها، فكتم شيطنته لحين.

قامت أمي بكل الأدوار راعية للمنزل وحارثة للقراريط التي أصبحت مع ما تركه والدي من مال قليل سبب بقائنا ووجودنا بل وتمايزنا الطبقي، وظهورنا أمام الجميع بوضع أفضل مما كنا نعيشه بوجود أبي، فقد فصلت لكل منا جلبابًا جديدًا من الكستور،الذي فرحت به، فأنساني همومي وهواجسي، حريصة كل الحرص على ذهابي وأخي للكتاب كل يوم معنا طعامنا ومليم في يد كل واحد منا، محافظة بذلك على وضعنا الطبقي المتميز بين أقراننا، فلم يغير غياب أبي من مستوى معيشتنا شيئًا، بل وبغت الخفراء ظهورها صباح يوم وجدي آتيةً من سوق المواشي ببقرة جديدة زاملت جاموستنا القديمة، وكأنها تريد أن توصل رسالة بليغة للباشا وكلابه أن بيت محمد أفندي سرور مازال مفتوحًا وبخير حال، وأن غيابه لم يؤثر على حالنا، يتهامس الجميع بأن محمد أفندي يأتي كل ليلة معه من المال والخيرات يصبه على أبنائه وزوجه، وللإيقاع به جثم كل ليلة خفير بباب دارنا الموصد، ولمّا لم ينالوا بغيتهم، تحولوا لظهر البيت فلعل محمد أفندي يغافلهم ويتسلق لسطح الدار من ظهرها، وأيضًا لم يفلحوا في شيء، المهم أن دارنا بإدارة أمي الحازمة قد تحسن حالها، وأصبحت حديثًا للمتسامرين بعد العشاء، كلهم يحلف بفاطمة أمي، أمي التي غلبت بعزمها إرادة الباشا وكلابه فلم يتشرد الأبناء، ولم تعمل البنات في قصر الباشا خادمات.

يدخل شهر رمضان فتدعوا أمي قارئًا يشدو بالقرآن قبل المغرب بساعة، وتعمر الكلوب، فيُضاء فضاء دارنا وما حوله، وتعمر المائدة بأوزة وأطباق الكوسكسي، ويتحلق الجميع حول الطبلية العامرة المقرئ وجدي والأبناء والبنات هانئين.

فاطمة المباركة أمي لم تكن غافلة أبدًا بأن دارنا هي الوحيدة المنيرة بنور هذا الكلوب ليلًا، وأن دارنا هي الدار الوحيدة التي يصدح فيها القرآن كل ليلة بمقرئ مستأجر، تمامًا كما يفعل الباشا كل ليلة من ليالي رمضان بقصره، لم تغفل أمي بل لعلها تعمدت أن تستفز الباشا، فدار محمد أفندي سرور في غيابه لا تقل عن قصر الباشا المنيف.

هل كان عنادي الشديد إرثًا ورثته عن أمي، عنادي الذي لا تكسره أية سلطة أو قوة، عنادي الذي يقف متحديًا الجميع، عنادي الذي جرَّ عليَّ كل هذه الأهوال والكوارث.

"7"

كالفراش الملهوف لبقعة من النور كان الفلاحون يتسللون لسماع القرآن بدارنا، يرتشفون أكواب الشاي الأسود المحلى، وكما يجذب النور الفراش، فإنه يجذب غيرها من حشرات لا تنفك عن الطواف حول مصدره، وبعدما فرغ المقرئ من وصلة ما بعد المغرب، وآوى الليل يستريح قليلًا انتظارًا للسحور قبل صلاة الفجر، هرعت صراصير الغيط بصفيرها المزعج نحو ضوء الكلوب بهذه الدار الوحيدة، بقعة النور وسط ظلام دامس لا يضاء بأمر الباشا.

خمسة من المطاريد الشراقوة يقتحمون الدار، يمزقون حرمتها، فيفزع من بها على وقع جلبتهم وزعيقهم المفزع، يحملون أريكة من صحن الدار، وينصبونها بالخارج، يجلسون ويبرطعون بأصواتهم المزعجة، تفز أمي من نومها بوجه ارتسمت عليه من آيات الحزم والقوة ما يستحق أن يرسمه صاحب الموناليزا، فيخلد ملامح القوة بوجه امرأة، كما خلد تلك البسمة الغامضة على وجه الموناليزا الأوروبية الملامح.

أتشعلق في ذيلها كبروز ناتئ من جسدها العفي، لا ينفصل عنه طيلة مكوثه بالدار، فتقودني بخطوات سريعة متلاحقة غير مترددة، كأنها تنفذ خطة مبيتة من زمن، تتوجه نحو خزانة الخبز الطينية، فتزيل طبقات من البرسيم والخبز، وتمسك بطبنجة، وتعمرها بأعيرة اختزنت في كيس من القماش، بسرعة ومهارة وكأنه قد دُربت على ذلك، ومارسته مرارًا، ينزل رأفت من على ظهر الفرن، وهو يسب الباشا والعمدة والخفراء والمطاريد والأحياء والميتين، ويركض بجسده الفارع الذي تشكل بذات جسد أبي الغائب، ليلحق بأمي وأنا المتشعلق بذيلها، يحاول من الحين للآخر اختطاف الطبنجة من يدها، فتخبط يده بكعب الطبنجة، فقد تيقنت أمي أنها لو تركت الطبنجة لرأفت لصور قتيلًا من المطاريد، لتظهر حاسرة الرأس أمام المطاريد الشراقوة الخمس، تصوب الطبنجة نحو صدورهم، تشخط بصوت كأعيرة الطبنجة المنتظرة لمسة على الزناد، فيبتلع الشراقوة عربدتهم مشدوهين من منظرها، مصوبين أنظارهم نحو فوهة الطبنجة، غير مصدقين أنفسهم.

"-قوم فز أنت وهو من هنا، أحسن أفرغ الطبنجة دي في بطونكوا..

-ادخلي يا ست انتي واحترمي نفسك..

-أنا اللي احترم نفسي ولا انتوا!

(لا يكف رأفت، كحصان جامح، في هذا الوقت عن السب واللعن للجميع في وصلة من هستيريا الغضب الأعمى، يعيد المحاولات مرة في إثر الآخرى لاختطاف الطبنجة من يد أمه، فتدفعه أمه بقوة، فهي لا تشك ولا يشك الشراقوة أنه لو أفلح في اختطافها لأفرغها في صدورهم وبطونهم، مما زاد على الموقف العصيب عصبية ألقت الرعب في صدورهم، يبتلع الشراقوة ريقهم، ويخفضون من نبرة صوتهم للتحول لنبرة مزاجها التهديد اللين والرجاء أن تمر الليلة بسلام..)

-احنا مستنين واحد..

-اللي انتو مستنينه مش هنا، ومش جاي، فز قوم أنت وهو من هنا خللي ليلتكوا تفوت..

-ياستي، سعادة الباشا محّرج ع الكل ما حدش يولع كلوب، اطفي الكلوب واحنا نقوم..

-قول لسعادة الباشا، الكلوب مش حاينطفي في دار محمد أفندي سرور، والقرآن مش حايبطل، وخليه يعمل اللي يقدر عليه..

-اسمعي الكلام يا ستي، وادخلي دارك.."

رفعت أمي المسدس، وحركت زرار الأمان استعدادًا لإطلاق أول عيار ناري، شعرت أن أمي على وشك إطلاق النار، فغاص قلبي في قدمي، وصمت رأفت منتظرًا سماع زغرطة أول عيار ناري، وفزَّ الشراقوة من أماكنهم واقفين، منتظرين ما سوف تفعله تلك النمرة الغاضبة، والتي لم يتوقعوا أبدًا فعلها.

همت أمي بالضغط على زناد الطبنجة، وجدي التسعيني قد ظهر بالمشهد وهو يرتعد من غضب كتمته حكمة السنين الطوال، يظهر فجأة الشيخ إسماعين متوجهًا للجامع ليؤذن لصلاة الفجر..

تنادي أمي بصوتها الرعد على الشيخ إسماعين، يدخل جدي للدار، يطفئ الكلوب، ويبتلع الشراقوة ريقهم، ويسرعون في الانصراف إلى حيث وجهتم التي أتوا منها.

لا تسأل يا عزيزي القارئ عن كيفية انتشار الخبر بما فعلته فاطمة مع المطاريد، فهذا طبع القرى، لا يبيت فيها سر أكثر من ساعة بليل، ثم ينسل من هجعته محدثًا طنينًا بكل آذان الرجال والنساء والصبية والصبايا.

جبَّرت ليلة الطبنجة انكسار عظم كرامتي يوم الحذاء، وكأن أمي أرادت بفعلها أن تعيد لي روحي، وثقتي بنفسي، فأجد نفسي مدفوعًا كل ليلة لإضاءة الكلوب، وقراءة القرآن مما حفظنيه الشيخ إسماعين، مقلدًا صوت المقرئ الذي لم نره بعد فرارة ليلة الطبنجة.

فيأتي الفلاحون يستمعون لما أتلوه من آيات القرآن، ويرتشفون ما تقدمه لهم أمي من شاي، أداوم على ذلك لياٍل، إلى أن يهمس أحد الفلاحين لجدي فيبثه خوفه على الصبي المرتل للقرآن، أو على رأفت المنهمك في لعب الكرة بالجرن مع أقرانه.

فيقنعني جدي بالكف عن القراءة لقبح صوتي ولحني المستمر وهذا حرام، فأكف مكرهًا، إلا أن الكلوب لم يُطفأ في دارنا طيلة ليالي هذا الشهر من رمضان.

"8"

في ذلك الزمن السحيق قبيل الحرب العالمية الثانية، كانت القرى بمصر مازالت تحتفظ بتقاليدها وأعرافها المتوارثة من جيل لجيل، شفاهة وممارسة، فكان الريف المصري على وضعه القديم والذي ورثه من مئات السنين وربما من آلاف السنين، فشكوى الفلاح الفصيح، المدونة بالبرديات القديمة، من الضرائب وقلة إنتاج الأرض وحرب الآفات المستمرة ضد زراعته، وفيضان النيل أو انحساره وقسوة رجال حكام الأقاليم في تحصيلهم الضرائب، مازالت هي هي ذات شكوى الفلاح المصري إلى الآن لم تتغير في تفاصيلها، تغيرت الدول وتغير الحكام بل وتبدلت اللغة ولم تتغير أحوال الفلاح المصري إلى زمننا في العام 1940 من القرن العشرين!

ربما كان ذلك الجمود والثبات من حسن الحظ والتوفيق، فتقاليد القرى وأعرافها، تضمن خطوطًا حمراء لا يستطيع أحدٌ مهما بلغ من السطوة أو القوة أو السلطة أو حتى الفُجر أن يتجاوزها، وهذا ما ضمن لأمي البقاء بعد ليلة الطبنجة، فأول خط من تلك الخطوط الحمراء هو عدم الاعتداء على امرأة مهما فعلت، وأمي قد فعلت الكثير ليلتها.

اليوم قد أتممت من عمري ثمانية أعوام، اليوم قد أتممت حفظ القرآن عن ظهر قلب، كان ذلك تتويجًا لكفاح أمي في فترة غياب أبي القسرية، تلك التي انقطعت أخباره تمامًا عنا، فضلًا عن أي مساعدة أو عون مالي، فيها شبَ رأفت فكان عضد أمي القوي في زراعة القراريط التي عجز جدي عن موالتها لتقدمه في السن فلعله قد بلغ المئة من عمره الآن، وكان لزامًا على أمي أن تحيي الليلة احتفالًا بهذا الحدث العظيم، وهذه الأملة التي لم يصل إليها إلا الأفذاذ من أطفال قريتنا والقرى المجاورة، عمّرت أمي الكلوب وجاءت بمنشد من السنبلاوين يحيي الليلة، وأعدت العشاء الباذخ من اللحوم ودعت أهل القرية جميعًا بمن فيهم خفراء العمدة والعمدة ذاته.

لتبدأ الليلة بحضور الشيخ إسماعين، وتأكيدًا على حفظي القرآن أخذ يستعرض حفظي أمام الحضور بأن يمتحنني باستحضار آيات القرآن من مواضع كثيرة خاصة المتشابه منها، فأفلحت فلاحًا دفع أمي لزغرودة شقت فضاء القرية وارتطمت بجدران قصر الباشا.

وبدأ المنشد وتحلق الفلاحون بحلقة ذكر، وحينما فرغ المنشد من وصلته الأولى مدت الموائد بما لذّ وطاب، وتناول الجيران الفلاحون والخفراء طعامهم هانئين، وامتد الذكر لقبيل الفجر، وكانت ليلة شعرت فيها لأول مرة بتفوقي وتميزي.

دقات الغولة الثلاث تفزعني من نومي الهانئ السعيد أفزع، ولكن ليس كالفزع الأول، بل فزع من اعتاد الأمر، ولكن لمَ جائت؟!، ماذا تريد أن تغتال الليلة، كان ثوب العيد ثم أبي، ثم من أو ما دفعها لتلك الزيارة غير المتوقعة؟! الدار كلها على قدم وساق، رواحًا وغدوًا من وإلى قاعة جدي القبلية، وأمي قد انهمكت في تبديل قطع القماش المبللة على جبهة جدي وجسده الملتهب حرارة، كانت تبكي في صمت على حَمِيهَا هذا السند الحكيم الطيب منذ أن دخلت الدار عروسًا صبية لا تفقه في أمور الحياة شئ، مع شدة أبي وقسوته أحيانًا، فلم يكن يطيب خاطرها ويشفع عند زوجها، أو يردّ بغيه واعتدائه عليها بقوة وحزم إلا جدي، كنت الوحيد الذي علم أن الليلة هي الليلة الأخيرة لجدي، وأن الموت قد جاء زائرًا مع دقات الغولة العجوز الثلاث.

وشق سكون الفجر صرخة هائلة من أمي وصوات متلاحق من أخواتي الثلاث، أيقظ القرية كلها فقد مات الشيخ سرور هجرس جدي العزيز الطيب.

أخذني التطير الشديد من زيارة الموت الأولى تلك لدارنا، فإذا كانت تلك هي الزيارة الأولى للموت فلن يمل الزيارات بعد ذلك، فمن تراه سوف يخطف بعد جدي؟!

وقبيل الظهيرة ومع إتمام تجهيز جسد الراحل، تبغت القرية كلها بمجيء أفندي بطربوش، وبدلة إفرنجية، ورابطة عنق، وساعة متدلية سلسلتها من جيب صدرية البدلة، في أبهة وبهرجة باديتين، من هذا الوافد بهيئته الغريبة، وبمزيد تدقيق "أهلا أهلًا محمد أفندي سرور، عظم الله أجركم في والدكم العزيز.." إنه أبي يحتضنني ورأفت وأخواتي الثلاث، ولاتدري أمي المسكينة ماذا تفعل تصوت أم تزغرد؟! إلا إنها قد انكبت على يد أبي وقدمه تقبلها وتسيل دموع فرحها وطرحها، وتنظر لأبي والأولاد نظرة فخر، وكأنها تريد أن تقول "لم أفرط في الأمانة بغيابك، وها قد جئت فاحمل عن ظهري هذا الحمل، الذي لا يستطيع أن يحمله صلب الرجال أو عزمهم.." كان وجه أمي يحمل الكثير من تعبيرات الفرح والحزن والفخر في مزيج لم أره قبل ذلك أو بعده..

يقام سردق العزاء يتقدمه أبي يأخذ الخاطر يليه رأفت ثم أنا، تأتي القرية كلها لتقديم واجب العزاء، وفي ربع ما بعد العشاء تهتز الأرجاء بوفد من المعزين يتقدمهم الباشا نفسه، ورفقته المأمور والعمدة، يدخل الباشا مصافحًا أبي مقدمًا العزاء.

هي التقاليد التي سبق أن حدثتك عنها، فالموت ينسِي الجميع العداوات والبغضاء، والموت يحتم على العدو أداء الواجب لأعدى أعدائه، هكذا كانت القرية في ذلك الوقت، وبهذا تنتهي تلك العداوة القديمة بين أبي والباشا.

هل كانت هي التقاليد وحدها أم شئ آخر؟! ربما وهذا ما سوف تلقي به الأحداث لصدري الذي ما خلا يومًا من الشكوك والهواجس، وعقلي الذي لا يسكن أبدًا عن التحليل وتقفي الأسباب الممكنة وغير الممكنة وراء حدث ما، ودائمًا ما كنت أصل إلى شك مر لا ينتهي وسوء ظن لا ينفك.

"9"

فقد علمنا فيما علمنا أن أبي قد هجر التدريس فترة انقطاعه، والتحق بمدرسة جديدة أنشأتها الحكومة للصيارفة، أصبح أبي صرافًا "بهيئة الأموال المقررة" ببورسعيد.

وكان قرار أبي بنزوح الأسرة كلها إلى مقر عمله الجديد ببورسعيد، تلك المدينة الأوروبية بأحيائها السبع، ومتاحفها، وميناءها، وفنارها، ومبنى هيئة قناة السويس، قناة السويس والذي كان حفرها مأتمًا جماعيًا للمصريين منذ ما يقرب من مائة عام مضى، وكم توالت المآتم على هذا الشعب منذ بناء الهرم!

كان نزولي ببورسعيد قد مثّل الصدمة الحضارية الأولى لطفل جاء لتوه من قرية صغيرة بالريف المصري، وكان أبي بأيام العطلات يصحب الأسرة لقضاء يوم على أحد شواطئها أو على شاطئ القناة، فأراقب طيلة اليوم السفن المارة بأعلام دولها المختلفة، وتطير خيالاتي لعالمها الذي أتت منه، أهو يشبه عالمنا، كيف يعيش سكانه، هل عندهم باشا وعمدة وفلاحون، كيف تبدو منازلهم وغيطانهم، هل عندهم كتاب ككتاب

الشيخ إسماعين؟ هل وهل وهل...تلك الأسئلة التي كنت أسألها لأبي، فلا يمل من إجابتها، كان ينظر إليّ نظرة المعجب بذكائي ونباهتي وهدوئي الظاهر، كان يريد أن يرى فيّ شيئًا، ويحقق بي مشروع حياته الذي فشل بتحقيقه، علمت ذلك بعد مرور تلك السنين.

وتنتهي الإجازة الصيفية، وأسائل أبي عن الكُتاب الجديد الذي سألتحق به، فيبتسم ابتسامة مشرقة، ويخبرني أن العام الدراسي قد أوشك على البدء، وأني سأصاحب أخي رأفت للمدرسة الابتدائية، وكان أول يوم لي بالمدرسة حدثًا عظيمًا، وقد تنوع الزملاء عمرًا، فمنهم من هم بسني، ومنهم من هم بسن رأفت، ومنهم من هو أكبر من الذي بدأ شاربه في النمو، كلهم بشياطينهم وملائكتهم تحت رحمة خرزانة المعلمين التي لا تهدأ ولا تمل العقاب لأقل هفوة، أو بادرة شيطنة أو استخفاف، طابور المدرسة الصباحي، وتحية العلم "الله.الوطن. الملك" أسماء جديدة تطرق سمعي لأول مرة، ماذا تراه الوطن، وما هو العلم ولماذا يبجلون تلك القطعة القماشية الخضراء بهلالها ونجومها الثلاث، ومن هو الملك، أيشبه الباشا في سطوته وقوته؟!

كنت تلميذًا مجدًا متفوقًا، سرعان ما طارت شهرته لأسماع الطلبة والمعلمين، وزاد في تميزي ذلك الإعداد والعناية الصارمين من أبي، فما أكاد أفرغ من واجبات دروس الإنجليزية والحساب والنحو والعلوم وغيرها من المواد المقررة، إلا ويخرج أبي دواوين الشعر وكتب الأدب، ويقرأ لي، ثم يلزمني كل يوم بحفظ قصيدة أو قطعة أدبية لأسماء قديمة أمثال عنترة وزهير والأعشى وأبي تمام والمتنبي وأبي العلاء المعري والهمداني، ولعل أول عقاب من أبي كان لفشلي المؤقت في حفظ مقطوعة من تلك المقطوعات، ولعل أول هدية جاءني بها أبي كانت لنجاحي بحفظ قصيدة من تلك القصائد بألفاظها الغريبة وموسيقتها المحببة لأذني.

فكان يومي يسير على وتيرة واحدة ذهاب للمدرسة، عكوف على دروسي، مراجعة وردي القرآني، ثم قراءة ما يقرره أبي عليّ من أشعار وأدب تنتمي كلها لفترات قديمة من تاريخ العرب.

"10"

وعلى صرامة أبي وعمليته، فكان يحمل بين جنبيه فؤاد فنان شاعر، فهو كان يقرض الشعر، بشبابه القريب، وما يزال . على غرار تلك القصائد القديمة بقافيتها ووزنها، بل كان يتغنى به إلقاءً في المحافل المتاحة له أحيان كثيرة، بل كان لأبي تجربة في كتابة المسرحية الشعرية على نحو ما كان يكتبه وقته أحمد بك شوقي لمسرح السيدة منيرة المهدية، كتب مسرحية كان دائما يذكر قصتها لي، وكأنه أراد أن يبذر شيئًا ما في روحي، كانت تجربته المسرحية الشعرية الأولى والأخيرة بعنوان "يوسف وزليخة" وكان عمره وقتها عشرين عامًا، أكمل كتابتها وذهب بها إلى القاهرة، بالتحديد بمسرح "رمسيس"، ألح وقتها في مقابلة بطلها ومديرها الفني، يومًا وراء يوم، حتى حظى أخيرًا بمقابلة الفنان سليمان بك نجيب، فسلمه مسرحيته، لم يكلف الفنان الكبير نفسه حتى بتصفحها، وإنما نظر مباشرة، لهذا الفتى الريفي الساذج، وسأله عن اسمه، أحس

أبي ساعتها بأنه قد حكم عليه بالفشل النهائي، بمجرد سماعه لنبرة الفنان الكبير، والتي تحمل استخفافًا واستهزاءً لا تخطئه أذن.

-اسمي يابيه مكتوب على الورق، لو حضرتك كنت كلفت نفسك وتصفحه!

-عارف، بس أنا مش هقدر أقدمك للجمهور!

-أنا مش عاوز حضرتك تقدمني أنا للجمهور، ولكن قدم المسرحية..

-شوف يا ابني أنا ميهمنيش مكتوب في المسرحية إيه، قد ما يهمني مين كتبها، إن شا الله يكون كاتب ريان يافجل..

-يعني إيه يا بك؟

-يعني مش هقدر أقدم مسرحيتك حتى ولو كانت أحسن من مسرحيات شكسبير نفسه، لأن اسمك مش معروف..

-أعتذر على تضييع وقتك..

يعتذر أبي لسليمان بك نجيب، ويأخذ المسرحية من يده، ويمزقها ويلقيها في سلة مهملات مكتب الفنان الكبير، وينصرف لقريته، ولا يكرر التجربة ثانية أبدًا..ثم يختم قصته تلك بقوله "الحمد لله إنه مقبلش المسرحية، كان زماني ضايع لو كنت احترفت مهنة الكتابة والفن، لأ أجد لكم قوتًا وكان زمانك بتفلح الأرض إنت وأخوك، وزمان أمك وأخواتك البنات شغالين في بيوت الناس خادمات..".

وإذا كانت نظرة أبي كذلك لمستقبل الأديب ولفنان في بلادنا، فلماذ أصر وبكل هذه القوة أن يستدعي عفريت الأديب والفنان ليركبني ما بقي من حياتي!

ربما أراد أن يعيش فيّ ما، ما فشل في أن يعيش فيه، لو أصر أبي على الكتابة، بل لو كان قد دار دورة على دور المسرح وقتها، ربما كان قد أفلح في أن يجد من يُقبل على مسرحيته ويقدمها، لعلها كانت طبيعته العملية، والتي اختصرت برأي سليمان بك نجيب آراء كل أصحاب المسرح وقتها، وربما كان عنده بعض الحق فما سمعه بمسرح رمسيس سيسمعه بمسرح عكاشة أو مسرح منيرة المهدية، أو حتى مسرح نجيب الريحاني وبديعة مصابني، ربما..

أراد أبي لي أن أعيش أديبا وفنانًا، لكن لا أحترف الفن والأدب كمهنة تضيع من يحترفها إن اعتمد عليها في تحصيل عيشه، أعيش بروح فنان، ولكن بجسد محام أو طبيب أو موظف لا يعتمد على الأدب والفن في تحصيل قوته، هل كان أبي على صواب في تلك النظرة، نعم، كان صائبًا كل الإصابة، فالفن والأدب في بلادنا مبيأكلش عيش لوحده.

المهم أن أبي هو المسؤول الأول عن استحضار عفريت الأديب والفنان ذلك العفريت الذي ملك كياني وسرت ورائه شتى سبل الهلكة.

"11"

وكان شقيقي الأكبر رأفت يسير على عكس خطاي، فهو منهمك في لعب الكرة، غير منشغل بالتحصيل الدراسي، أو المطالعة، ربما كان ينتقم في ذلك من أبي الذي ركز كل اهتمامه ورعايته لي، فكان انتقامه في السطو من حين لآخر والهجوم على محفظته، فيغيب يومًا أو اثنين، ثم يعود خاليَ الوفاض من ثمرة ما اختلسه، يتلقى العقاب الصارم من أبي، ثم يعود مرة ثانية لما فعله.

عاد أخي يومًا بساعة يد، وبعدما تلقي من أبي حصيلة اللطم والركل، أخذ أبي الساعة، ووضعها في الهون وحطمها بيد الهون، وفي الأسبوع الثاني، أختلس أخي ما تيسر من محفظة أبي واشترى ساعة أخرى، أو اشتري زيًا رياضيًا وكرة قدم، أو بذر الفلوس على أحد كازينوهات بورسعيد أو الإسماعيلية كثري من أثرياء المدينة.

كنا قد أوشكنا على دخول امتحان الابتدائية، وكان غضب أبي على أخي قد بلغ ذروته، ولكنه لم يرد أن يأخذ قرارًا منفردًا، بل أراد أن يشرك أمي في قراره، فتحجج أبي بقلة موارده، وبعدم قدرته في أن يكمل الشقيقان سبيل الدراسة لآخره، فاستشارها في ذلك وكان الحديث على مسمع أخي الذي كان دائما ما يكرر الحكاية، وكان سخط أمي على أفعال أخي لا يقل عن سخط أبي، فقررت أن يكمل نجيب الدراسة، ويعود رأفت لدارنا بأخطاب يفلح الأرض.

كانت حجة أبي بقلة موارده غير صحيحة للأسف، فأبي قد اشترى على أرض أبيه فدانًا كاملًا من الطين، هذا الطين الذي سينمو بحيازة أبي ليصل إلى ثلاثة عشر فدانًا كاملًا! من أين لأبي بكل هذا المال، وكل هذه الأرض وهو الصراف البسيط، ربما كان السر في طبيعة مهنته ودفاتره، تلك التي كان يمص بها الباشا وصرافه دماء الفلاحين فيسطون على أرضهم وهم لا يعلمون، أكان أبي كذلك؟ هل تعلم هو الأخر تلك الألاعيب، خاصة بعد هذا الوئام أو الاتفاق أو الرضا من الباشا في أن يملك أبي كل هذا القدر من الأرض، هل انضم أبي لحاشية الباشا؟!

أسئلة مريرة الوقع، كانت دائما ما تؤرق ذهني المرهق، ولكن قد اتخذت قرارًا بيني وبين نفسي، فأرض أبي حرام عليّ ما حييت، أرض أبي التي امتزجت بدماء الفلاحين..

كان تملك أبي لتلك الأرض بمثابة النقطة السوداء في تاريخه كله، وربما فسرت لك عزيزي القارئ، كثيرًا من سلوكي وتصرفي، بل وانتقامي من أبي لصالح أولئك الكادحين.

أراك تقرأ عزيزي الناقد ما أكتب الآن في هذا الفصل، وتمط شفتيك امتعاضًا، لسبقي الأحداث، وعدم اعتنائي ببناء الرواية الفني، من بداية وذروة ثم حل ثم نهاية، أصارحك أيها الناقد بأني لا أكتب رواية بقدر

ما أريد أن أكتشف معك سر مأساتي، فكل شئ كان يبشر بمستقبل باهر، فلماذا انقلبت بي الأمور إلى هذا الحد البائس، ربما أكتشف ذلك، ولكن ما فائدة الاكتشاف بعد ضياع كل شئ، وأنا لست من هواة إلقاء الخطب أو العظات، هل هو نوع من جلد الذات، والانتقام من النفس، هذا الذي مارسته كثيرًا على نفسي وعلى من أحب، هذا السوط الذي عذبت به نفسي، وكل من أحاطني، أم تراني كنت مثاليًا حالمًا يريد أن يعيش في سماء القيم وهو يسير على أديم تلك الأرض البائس.

المهم خرج أخي ولو مؤقتا من سباق التعلم وتحصيل الشهادات، ودخلت أنا امتحان الإبتدائية، والتحقت بالتوجيهية التي تعادل الثانوية العامة في عصرنا.

كنت أصغر طالب بالمدرسة التوجيهية، وطارت أخبار تفوقي لمعلمي المدرسة وأقراني.

"12"

وقد وضع لي أبي برنامجًا صارمًا لدراسة الأدب خاصة الشعر القديم من أول معلقات شعراء العصر الجاهلي، نهاية بالمتنبي وأبي العلاء المعري، كان يقرر لي مقطوعة شعرية عليَّ حفظها ودراسة معانيها، ربما كانت أول صفعة وجهها لي أبي كان بسبب تعثري في حفظ أحد تلك المقطوعات الشعرية الصعبة، وأنا الآن وفي بداية التعليم الثانوي، قد حصّلت كمًا هائلًا من الأشعار الصعبة، وكنتُ قد حفِظت عن ظهر قلب لزوميات أبي العلاء المعري، وهذا أمر يكاد يكون مستحيلًا أن تجده في أبناء جيلي أو من هم أكبر أو حتى معلميني بالمدرسة الثانوية، هل كان ذلك السبب الحقيقي وراء شعوري الدائم بالتميز وما دفعني للاعتداد بالنفس والاعتزاز بها، وفي ذات الوقت بداية أزمتي وانفصالي عن جزء كبير من الواقع، وعقدة شعوري بالاضطهاد، نعم، الاضطهاد فكيف لطفل يُجبر من قِبل أبيه، السلطة الأولى المسيطرة على مقدرات حياته، على حفظ هذا النوع الصعب من الأدب، في حين أن أقرانه يبرتعون في شتى الأنحاء يمارسون كل فنون اللعب والعبث المتماهي مع أعمارهم وطبيعتهم كأطفال.

صدقني أنني قد قفزت قفزات على مراحل من عمري كان ينبغي عليّ المرور بها، أشعر بكهولة مبكرة تسيطر عليّ وأنا بعد على عتبة المراهقة الأولى.

بين قطبي الإذعان والتمرد كنت قد بدأت في التأرجح مراهق وديع مطيع ومتمرد صغير يثور بكل عنف على كل صور السلطة وأولها معلم اللغة العربية، ذلك الذي لاحظ قدراتي اللغوية والتي ربما فاقت قدراته، وبدلًا من التشجيع والثناء كان العقاب والتهكم المستمر منه، فوجدتني كرد فعل في تمرد دائم حياله في صورة تعجيزه باستعراض ما حفظته من لزوميات أبي العلاء، وإلقاء الأسئلة المباغتة والتي كان دائمًا ما يقف عاجزًا عن مجابهتها، فيسلط عصاه أو لسانه متهكمًا في وسط عاصفة من ضحك الزملاء المجاملين لأستاذهم حد النفاق في مزيد تهكم وضحك، فما كان مني إلا مزيد ثورة وتمرد.

حتى كانت الأزمة الكبرى وأنا بمدرسة مغاغة الثانوية، فقد نسيت أنا أحكي لك أن الأسرة قد انتقلت مع أبي إلى مديرية إلمنيا بصعيد مصر، حيث ترقى أبي كبيرًا لصيارفة مغاغة، فقد ألف أستاذ اللغة العربية رواية شعرية، وللعجب أنه قد عرضها عليّ أولًا، هل كان ذلك منه طلبًا لهدنة مع هذا الطالب المشاغب في نظره، هل كان نوعًا لاستدرار مصالحة ما، أو الوقوف بي في حالة من الحياد، بمغازلة غروري، ربما، لأجد نفسي قد وصلت لذروة الأرجوحة نحو التمرد، فهي رواية شعرية ركيكة غير متماسكة مشتتة بين الشخوص غير المتسقة،والتي لامبرر لأفعالها، هل ألتقط الخيط، وأحاول المهادنة والمجاملة، أم أجهر برأيِّيَّ النقدي؟!

وجدتني مدفوعًا بقوة غيبية غير مبررة لتوجيه سهام النقد، ليس بيني وبين الأستاذ، ولكن في صورة فقرة من برنامج الإذاعة المدرسية، كلها سخرية مما كتبه الأستاذ، مما أثار عاصفة من الضحك، بين الطلبة والمعلمين، فما كان من الأستاذ إلا أن يعترض ويثور ويكتب فيَّ مذكرة لناظر المدرسة، يشكو فيها من قلة أدبي، فيتم استدعاء أبي ليوبخني أمام زملائي والناظر والمعلمين، ويقودني من يدي للبيت، فقد أصدرت إدارة المدرسة قرارًا بفصلي أسبوعًا كاملًا، مكثتها في البيت، لأقع تحت سياط التأنيب، ونظرات اللوم من أمي.

وبعد نهاية الأسبوع أجدني قد تأخرت في تحصيل ما حصله زملائي، بل أجد الجميع يتجنبني، بل ويجاهرني العداء بلا سبب، إلا أن الأستاذ قد حرض عليّ زملائي، وفي محاولة للدفاع عن نفسي أجدني مشتبكًا مع أحد الزملاء الذي بالغ في استفزازي، وكنت قوي البنية فارع الطول، فوجدتني منقضًا عليه ضربًا وركلًا حتى أدميت وجهه، فما كان من الناظر إلا أن أصدر قرارًا آخر بفصلي.

أتمرد على كل تلك السلطات الظالمة، ولكني لا أجد أي مساندة من أي قوة بداية من أبي اللذي في البيت إلى أبي الذي في السموات.

لا أنسى ذلك المساء وقد عكفت على قراءة أبي العلاء في شرفة منزلنا الريفي بمغاغة، وقد جلست أمي بجانبي تأكل رغيفًا وقطعة من الجبن، فقد كانت أمي نباتية لا تقوى على تناول طير أو حيوان، كانت في غاية الرقة، بالرغم مما يبدو عليها من صرامة وقوة.

-هو ربنا موجود يا أمه؟

-ربنا موجود في كل مكان يا نجيب!

-بس أنا مش شايفه في أي مكان!

تبدو الصدمة على وجه أمي من هذا التجديف القاسي، والذي ربما تسمعه لأول مرة في محيطها، فترد مرتاعة.

-بكره تشوفه يا نجيب، ويغلِبْك!

يغلبني أم يحبني؟! هل كانت السلطة لمجرد اجتثاث قدرة الإنسان، وقهره؟ أم مساندته والدفاع عنه، وإذا لم يساندني أحد في أزمتي بل وكان يدًا باطشة للتنكيل بي، فأين هذه القوة الغيبية الرحيمة العادلة؟ أيضًا أجدني منجذبًا للتمرد، هل كان إلحادًا حقيقيًا أم إيمانًا ولكن بصورة معكاسة، هل يتمرد أحدٌ على العدم؟!

(13)

بدى الكثير من التعب والإرهاق على أمي، فكثرت ساعات نومها، وكل يوم يزداد وجهها شحوبًا، وتنتابها نوبات شديدة من الحمى والقئ، وقد قلق أبي أشد القلق على زوجته الجدعة والتي هي أرجل من عشرة رجال مجتمعين، وكان قد أخذ إجازة من عمله ليمرض أمي ويمكث بجانبها الساعات الطويلة، يحاول أن يغلب غلواء الحمى، ولما فشلت المحاولات في علاجها منزليًا، كان على أبي أن يستدعيَ طبيبًا من مدينة المنيا، فلم يكن في مغاغة كلها من طبيب واحد يمكن استشارته.

استعار أبي حمار جارنا الطيب وبكر ذاهبًا نحو المنيا، في رحلة ستستغرق على الأقل أربع ساعات ذهابًا وإيابًا، ولم يكن في البيت غير أخواتي البنات الثلاث وأنا، وقد غاب ثروت عنا بعدما أرسله أبوه لإخطاب لفلاحة الأرض.

وترك لي ولأخواتي مسؤولية رعاية أمي المحمومة، كنت أراوح يدي بين جبينها الملتهب وخرقة مبللة بالماء، لا تستغرق وقتًا حتى تجف من حرارة جسدها المشتعل، وآنية من الماء البارد تأتي به أختى الكبرى من الحنفية العمومية أول شارعنا.

ومع غرقي في البؤس كان شريط ذكرياتي معها ينهال على ذهنيَّ المشتعل الملتاع، ولا أدري لماذا لا تنقطع تلك العجوز الشمطاء على زيارة أحلامي هذه الأيام.

طرقات ثلاث من يدها النحيلة العجوز على أبواب ضميري كفيلة بمعرفتي المأساة القادمة، لم تأت الملعونة إلا لتأخذ!

وفي صحو مفاجئ غير متوقع من أمي، تحدثني:

-يا نجيب ربنا رحيم، ربنا هو سندك يا حبيبي، أوعى يا نجيب، أوعى تزعل من ربنا!

تنسال دموعي رغمًا عني، أين راحت قوة أمي، أين راحت يا أمي، ولماذا تصر الأيام على هذا العداء غير المبرر، لماذا يا أمي؟!

ثم تذهب أمي في نوبة نوم عميق، وتأخذ الحرارة في الانخفاض، تنخفض، وتنخفض حتى أضع يدي فألمس برودة تتسرب ليدي، هل هو الشفاء؟!

لم أر الموت من قبل، وحين مات جدي كنت صغيرًا لا أدرك ما الموت، وما علاماته، تهرع أختي بآنية الماء، تطيل النظر لأمي تلاحظ انخفاض تردد وتيرة أنفاسها، ثم شهقة أخيرة من أمي، ثم تتابع الصوات من أختي، لتشاركها الأختين في الصوات، وتسارع الجارات في الولوج لمنزلنا، ويشتركن في مقطوعة من الصوات الجماعي الملتاع.

ماتت، ماتت أمي..

وعلى وقع الصوات يصل أبي مرافقًا للطبيب، الذي يسرع لجثمان أمي الهامد، ووجهها الذي بدت عليه علامات الراحة أخيرًا.

-يا محمد أفندي البقاء لله، كانت الست الله يرحمها في شهر حملها الثالث، كيف لم تلاحظوا يا محمد أفندي؟!

ينخرط أبي في بكاء مسموع لأول مرة، كان يحبها، بالرغم من عدم إظهارحبه طيلة تلك السنوات، ماتت أمي لم يحتمل جسدها الواهن هذا الوافد الجديد، لم نلاحظ كلنا كنا قد انشغلنا عنها، وهي كانت قد انشغلت عن نفسها بانهماكها المستمر في خدمتنا.

لم يكن من الممكن دفن أمي بإخطاب على طول المسافة، وشح المواصلات وقتئذ وبطئها، يسرع عمدة القرية لمواساة أبي المنهار، ويتخذ العمدة القرار عن أبي الغائب:

-أكرام الميت دفنه يا محمد أفندي،وما فيش داعي لنقلها لإخطاب، بعد إذنك هندفنها هنا في مغاغة في مقبرة أسرتي، هنتشرف ونتبارك بوجود أم ثروت عندنا، بالله عليك يا محمد أفندي، اسمع كلامي!

لم يجب أبي، وإن بدى لين الموافقة على وجهه، وأبرقُ لأخي ثروت بإخطاب مخبرًا بوفاة أمي، وأعلم أنه لن يأتي إلا بعد يومين على الأقل.

أمي أمي لم رحلتِ وتركتِ ابنك المحب وحيدًا؟!

(14)

نشعر بالغربة الموحشة غير المحتملة في مغاغة بعد موت أمي، ويسعى أبي بكل جهد ممكن لأن يرجع لإخطاب، ولكن تفشل كل مساعيه في ذلك، فيقبل أبي حلًا وسطًا، وهو أن يُنقل للقاهرة، ونرجع نحن، أنا وأخواتي البنات، لإخطاب ثانية، أي عبث هذا! كنا كمن استجار من نار التنور بنار جهنم، فلم نكد نصل لإخطاب حتى غزتني كل ذكرياتي مع أمي، فهي ماكثة هناك تخبز بجانب الفرن، أو هي تعد كانونًا بأيام المواسم لحلة من المحشي، أو هي تطعم الدجاج أو تصعد لبرج الحمام، أو تعطف أو تؤنب أو تصلي أو تؤدب، كدت وقتها أن أجن على سبيل الحقيقة لا على سبيل المجاز.

ولكن سرعان ما انقضت عطلتي الصيفية، لأكمل دراستي الثانوية بمدرسة زفتى الثانوية، ولأستقل لأول مرة بسكن خاص وحياة مستقلة عن أعين الرقيب من الأهل، هنا تبدأ شخصيتي وطباعي وجنوني في التكون والظهور، أول هذه الطباع الإسراف الشديد حالما كان في جيبي أي مبلغ، وفي زيارات أبي الشهرية كان يجدني خاويًا تمامًا من أي مال، فقد كنت أنفق مصروفي في أيام، وأعيش على الطوى، أو على الطرشي والخبز الجاف، حتى يأتيني المدد من القرية، ولا أذكر أبي مرة حتى بعد أن ألتحقت بكلية الحقوق بالقاهرة، أنه زارني فوجد لدي بقية من نقود، كان دائمًا يجدني على الحديدة، أو شاحت الدقة، على حد تعبير أبي، ولقد ضاق أبي بتبذيري.

وكنت بدأت في التدخين فكانت السجارة أمتع لذائذ الدنيا في يدي، وبكرور الأيام كان تزداد حدة إدماني للتبغ. وكان يلجئني هذا الكيف الدخاني، للسحب شكك من البقال، وكان حرصي الأول على سداد البقال خوفًا من تعثري في السداد فحرماني من حصتي اليومية من السجائر، وكان ذلك أحد أسباب إفلاسي الدائم. فلا تكاد الشهرية تبقى يومًا أو يومين في جيبي.

وكنت أتابع مجلة "الرسالة" شغوفًا جدًا بكتابها خاصة "أنور المعداوي" الناقد اللامع وقتها والأديب الذي فارق بقلمه كل من عاصره من الأدباء، بل لقد راسلته برسالتين، ولكنه قد تجاهل الرد عليهما، أو ربما لم يصلاه في الأصل.

وكان الناس وقتها على حزبين حزب "العقاد" وحزب "طه حسين" وكنت دائمًا مترددٌ بين الحزبين مشتت بين عقلانية العقاد ورصانته، وفنية طه حسين وأرستقراطيته الأدبية.